# محمد ﷺ

لم ينشأ محمد بن عبد الله ﷺ في أرض تضحك سماؤها، ويخضل شجرها، وترف تعاشيبها، وتموج أنهارها، وإنما نشأ في صفاح جبال سود تدخل الكآبة على القلوب تحت سماء كامدة اللون، بين صحراوات صاهرة الشمس، لا تأنس فيها العين بخضرة ربيع أو بصفرة خريف، ولا تأنس فيها الأذن بنوح عندليب، أو بحفيف ورق، أو بخرير ماء، فقد حرمه الله محاسن الطبيعة التي تفتح العقول، وتلهم العبقريات وتوحي الكمالات.

وكأني لا أزال أرى غار حراء الذي كان يتحنث فيه محمد بن عبد الله ﷺ، كأني لا أزال أرى هذا الجبل الأسود الذي لم ينبت فيه نبت، ولا اهتز فيه شجر، كأني لا أزال أرى هذا الغار الذي كان يفزع إليه في خلواته، هارباً من ضوضاء الحياة راغباً في هدوئها، فكنت أقول في نفسي وأنا في سفح حراء: أفي مثل هذا الغار تنبثق عبقرية، أم يبرع فضل، أفي مثل هذا الغار يصفو ذوق أم ينمو شعور، أم ترق عاطفة، أم يزدحم خاطر!

هذه معجزة محمد بن عبد الله ﷺ.

وإني لا أرجع إلى الطبيعة التي نعمت برؤيتها في إيطالية وسويسرة وفرنسا وانكلترا، ولا أفكر في هذه العبقريات التي نشأت في سهولها المديدة، بين جبال شَجيرة، وأنهار مائجة، وبحيرات باسمة، وحدائق غلب،

لا أفكر في هذه الخواطر التي رويت من هذه التربة الناعمة إلا ازدادت معجزة محمد بن عبد الله ﷺ عظمة في عيني!

أي رسالة توحي جبال مكة والمدينة!

أي نبوة تلهم هذه القفار الرهيبة!

أي خاطر يهيج في هذه الرمال المتراكبة تحت سماء عابسة، لا يظلل فيها شجر، ولا يغرد فيها طير، ولا يموج فيها ماء!لقد تغيرت الأرض غير الأرض والسماوات، وبقيت جبال مكة والمدينة واحدة لم تتغير، فمن اليوم الذي اتبع الناس فيه ما أنزل الله على محمد بن عبد اللهﷺ من نور ساطع إلى يومنا هذا لم يتغير شيء في هذه الأرض المقطبة، جبال جرد، وصحراوات كئيبة.

في هذه الأرض نزل الهدى والرحمة على محمد بن عبد الله ﷺ، فسمع الناس ما لم يسمعوا، وذاقوا ما لم يذوقوا، في هذه الأرض بعث الله﴿ **في الأميين رسولاً يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين**﴾.

من هذه الأرض السوداء انبثق هذا النور الذي أضاء أميين لا عهد لهم بحضارة أو بفلسفة أو بحكمة فهزهم هذا الضياء، وبهرهم هذا النور وقد انقضى عليه أربعة عشر قرناً إلا قليلاً ولا يزال يهزنا ويبهرنا، من هذه الجبال المظلمة، جبال مكة والمدينة، طلع نور محمد بن عبد اللهﷺ، ولكن هذه الجبال أضيق من أن تتسع لمثل هذا النور، فجازها إلى آفاق أبعد من آفاقها، وإلى سماء أوسع من سمائها، حتى أضاء بلداناً وهدى أمماً، وهزم جيوشاً وقوض عروشاً.

إنه لنورٌ ساطع طلع من جبال شديدة فكان فيه كثير من الشدة، وكثير من القوة، ليس فيه شيء من لذة الحياة ومسكنها ومن خضوعها وخنوعها، من هذه الجبال الرهيبة، جبال مكة والمدينة، بلغ محمد بن عبد الله ﷺ الناس ﴿**إن الله يحب الذي يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص**﴾.

من هذه الجبال السود المظلمة كان يحرض المؤمنين على القتال وعلى إعداد ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل.

وها قد أتى على قرآنه الذي كان يقرأه ﴿**على الناس على مكث**﴾ ألف وثلاثمائة وخمس وخمسون سنة والأيام لا تزيد حقائقه إلا نصوعاً، فقد انقرضت أمم لم تقاتل صفاً كأنها بنيان مرصوص، وتبسطت أمم جعلت القتال شعارها، وأعدت لعدوها ما استطاعت من قوة، أما هذا السلام الذي يبشر بحرية الأمم، أما هذا السلام فإنه لايزال حلماً من الأحلام، فلا رحمة ولا محبة ولا سلام.

لقد كان محمد بن عبد الله ﷺ يثق بقوة رسالته، وبشدة نبوته، كان يثق بأن الحياة كلها إنما هي جهاد وقتال، فكان يفخر بهذا البنيان الذي حرض فيه المؤمنين على القتال ويقول:﴿**لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً**﴾.

في هذه الجبال الراعبة نزل هذا القرآن الذي لا يأتي الأنس والجن نزعة إلى تربتها الشديدة أكان ﷺ مثله، أفكان في قلب محمد بن عبد الله يحب مكة التي آذته، إنه لم يزهد في حب سمائها العابسة وتربتها القاسية.

وعلى الرغم من امتلاء قلبه بما لم يمتلئ به قلب بشر، واتساع باله لما لم يتسع له بال أحد، إنه على الرغم من شغل فكره بهذا المجد الخالد الذي

طمح إليه كان يحب جباله المظلمة وصحراواته الصاهرة، وسماءه العابسة، وسواء أرقت الطبيعة تحت سماء مكة أم كمدت، وسواء أنضرت جبالها بالشجر أم جردت تجريداً، وسواءً آذته مكة أم لم تؤذه فإنه أحب جبالها، وأحب سماءها، وأحب كآبتها وكمدتها فأذن في الناس بالحج إليها فأتاها رجال من كل فج عميق، وطوفوا ببيتها العتيق وشهدوا فيها منافع لهم وذكروا اسم الله في أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام فأكلوا منها وأطعموا البائس الفقير وقضوا تفثهم ووفّوا نذورهم.

قتال في الحياة!

تعلق بالوطن!

هذا هو النور الذي أنزل مع محمد بن عبد اللهﷺ، أفتعيش أمة في أي عصر من العصور من دون قتال ومن دون وطن!

إنه لنور خالد؟

**جريدة فتى العرب ٢٨ حزيران ١٩٣٦**

# عبقرية الوطن

قال جول لومتر:

«إذا سمعتهم يتقعرون في حب الوطن جمّدتُ وطويت حبي في قلبي حتى يكون في عزلة عن أباطيل البيان، لأن هذه الأباطيل تجعله كاذباً فارغاً، ولكني إذا أحطت بنهر (اللوار) من منعطفات شطوطه، وحُمت على هذا النهر المنبسط الأزرق، وصوّبت نظري وصعدته في مروجه وحوره وفي قصباته الزرقاء، وشممت من نسيمه الرقيق، أو إذا بعدت قليلاً عن هذه المشاهد فألقيت نظري في هذا البلد المحبوب الذي نبت في أفيائه ملوكنا القدماء على قصر مصقول كاللؤلؤ يذكرني في فرنسا القديمة ومكانتها في العالم فإني أشعر حينئذٍ بفرط الحنو على هذه الأرض الكريمة حيث نبتت لي في كل بقعة من بقاعها أصول دقيقة قوية».

ولما قرأ أناتول فرانس هذه الصفحة البليغة قال:

«ليتني أنا الذي قلت هذا الكلام، ليتني أنا الذي قلته على هذا الأسلوب، على أني إذا لم أقله فقد شعرت به شعوراً قوياً».

* * *

ما أعذب هذه الوطنية الهادئة الساكنة التي لا أثر فيها لشيء مما يسمونه أباطيل البيان!

ما أصدق هذه الوطنية الممزوجة بحب أشكال الوطن وألوانه فلا يكاد المرء يرى شكلاً من هذه الأشكال أو لوناً من هذه الألوان حتى يذكر آباءه وأجداده الذين أنشأوا له تربته الكريمة فسرحوا فيها ومرحوا وغدوا على جنباتها وراحوا، ووردوا ماءها وصدروا عنه، وبكوا فيها وضحكوا حتى عصف الدهر بهم فلم يبق منهم إلا الرسوم والآثار، ولم يبق من هذه الرسوم والآثار إلا ما غادرته من كآبة في القلوب، ودموع في العيون وشجون في الصدور، ومن الكرم أن يذكر المرء شجرات قد استظل آباؤه بظلالها، وحدائق قد أكلوا من ثمراتها وأودية مروا بأجزاعها، وجبالاً عثروا بصخراتها فإن هذه الذكرى لكريمة وإن تكن أليمة، والوطنية المجردة لثقيلة على القلب:

اسمع ما قاله أناتول فرانس في هذا المعنى:

«مهما اختلفت فرنسة في وحدتها التي لا سبيل إلى تجزئتها فالواجب علينا أن نتغنى بجبالها وأوديتها وبغاباتها وسواحلها وأنهارها فإن دين الوطن لا يكمل إلا إذا أضفت إلى شرائعه المقدسة هذه البدع الفتانة التي تجعل لكل المذاهب شيئاً من الحياة واللطف، فالوطنية المجردة إنما هي باردة في نظر بعض الذين تهزهم محبة الأشكال والألوان فيحبون من وطنهم ما يحيط به نظرهم من هذا الوطن.

ومن ولعهم بأشكال هذا الوطن جعلوا لها حياة على تراخي الأيام فيقولون:

مات فلان في ظلال هذه الشجرات التي شهدت موت فلان وفلان، فلا ينظر المرء إلى هذه الشجرات إلا ذكر رهطه الأولين الذين ذهبوا فبقيت بعد ذهابهم غصون نضيرة تحمل أزاهير فياحة إذا هب النسيم عليها جاء بالأريج والطيب فاستنشق المرء هذا الأريج، وشم من هذا الطيب فهاجت في خاطره ذكرى الذين غرسوا هذه الشجرات وتعهدوها

فقويت الأواصر بينه وبينهم، واتصل حاضره بماضيه، فلم تضرب الأيام بينه وبين أجداده بالأسداد.

وإني لأذكر قول حسان:

**يسقون من ورد البريص عليهم**

**بردى يصفق بالرحيق السلسلِ**

فتخيل إليَّ جاهليتنا، ويتمثل إليَّ بردى وما طواه من العصور، وما تقلبت على جنباته من أمم ودول، فكأنما قد طويت لي هذه الأمم والعصور، فدنا مني بعيدها، وأحاط بي شاسعها، فلم يبق منها إلاّ نهر بردى ولم يبق على بردى إلا هذا الوادي الذي يجري فيه، وهذا الدوح الذي يحنو على أهله حنو المرضعات على الفطيم.

وإني لأذكر قول امرئ القيس:

**بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه**

فأدرك السر في هذا البكاء فكأنما صاحب امرئ القيس قد مر بوطن غير وطنه، ونزل بأهل غير أهله، فاجتاز جبالاً وآجاماً لا عهد له بمثلها من قبل، فأدركته الوحشة، تلك الوحشة التي تساور صاحبها إذا ترك دياره، ومر بأمكان قد خلعت عليها الطبيعة جلابيب العظمة مثل جبال طوروس التي مر بها صاحب امرئ القيس، ومثل غابات الأناضول، ولما أدركته الوحشة حن إلى أهله وبكى على وطنه وود لو حملته الرياح إلى أهله وعشيرته.

وإني لأذكر قول شوقي في هذا العصر لما نزل دمشق الشام:

**مررت بالمسجد المحزون أسأله**

**هل في المصلى أو المحراب مروان**

فيتصور خاطري أيام بني أمية في ربوع الشام ويخطر على بالي جلالة خلافتهم وقد انطوت تلك الأيام العذبة، فطوت معها تلك الخلافة، فلم يبق من بني أمية على أفياء بردى إلا الذكرى فمن قُدَّ قلبه من صخر فليتحمل مضاضة هذه الذكرى إذا استطاع سبيلا.

هذه هي الوطنية التي ينبغي لنا أن نتغنى بها.

إن نفوسنا لتحركها محبة الألوان والأشكال أي أشكال هذا الوطن الكريم، وألوانه البراقة الوضاءة فمتى استطعنا أن نتغنى بجبالنا وأوديتنا وبمروجنا وسهولنا، ومتى استطعنا أن نتغنى بهذا النسيم العليل الذي استنشقه آباؤنا وأجدادنا، وبهذا الماء العذب الذي وردوا عليه وصدروا عنه، وبهذه الغوطة الغناء مجلى الطبيعة ومغنى الأنس، عرفنا حينئذ قيمة الوطنية النقية الصافية الهادئة الساكنة التي لا تقوى على قتلها العصور والأحقاب، فما تكر عليها الأيام إلا ازدادت رسوخاً في القلوب وتمكنا من الخواطر.

لقد تفنن كتّاب الغرب في هذه الوطنية كل التفنن، وذهبوا كل مذهب وما عساني إن أذكر آثار تفننهم في مثل هذا المقام، بين يدي وأنا أكتب هذا المقال مجلة (Les Annales) سنة ١٩٢٤ سمى صاحب هذه المجلة جزءه هذا (Verailles) وأعني به قصر فرساي الذي يعرف سحره ورونقه كل من زار «باريز».

ماذا أذكر مما ورد من الكلام على هذا القصر لبلغاء الكتّاب وأكابر الشعراء، لقد وصفوه في قديم أمره وفي حديثه، ووصفوا كيف أصلحه المصلحون في هذا العصر حتى يبقى مفخرة فرنسة على وجه الدهر وصوروا كل ناحية من نواحيه، وكل رمز من رموزه وذهبوا مذاهب أبعد فتكلموا عن الشعراء الذين ترددوا على هذا القصر ومثلوا رواياتهم

فيه، وأعني بذلك الشاعر «موليير»، وتكلموا على أعياده أي أعياد الملك والملكة فلم يغادروا صغيرة ولا كبيرة، وبحثوا عن صحنه وعن ساحاته وعن قاعاته وعن مائه وشجره وأشاروا إلى قاعة المرايا الشهيرة ووصفوا كيف دخل البروسيان قصر فرساي سنة ١٨٧٠.

وبعد هذا الوصف البليغ ذكر صاحب المجلة أقوال الشعراء في قصر فرساي ومن جملة هؤلاء الشعراء، شنيه، وهوغو، ودي موسيه، وغوتيه والكونتس دي نواي وغيرهم، وقد أفاض كل شاعر في الافصاح عن ذكرياته في هذا القصر.

أي نفس فرنسية لا تطرب لذكر «فرساي» بعد هذا الوصف أي نفس لا تشتهي زيارته ورؤياه.

أي نفس لا تتحمل مشقة السفر إليه، من شمال فرنسة وجنوبها ومن شرقها وغربها.

أي فرنسي إذا قرأ هذا الوصف لا يتغنى بملوكه القدماء.

أي فرنسي لا يذوق لذة هذه الوطنية التي بنيت على الولع بآثار الوطن، واللهج بطبيعته.

أي فرنسي بعد هذا كله لا يفيض قلبه غبطة وحبوراً من مشاهدة رسوم الوطن وآثاره.

فإذا كانت وطنيتنا ينقصها شيء فإنما ينقصها هذا الطراز حتى يشرب قلب كل واحد منا حب تربته الكريمة على شتى ألوانها وأشكالها، وفي مختلف أيامها وعصورها.

**جريدة فتى العرب ١٠ آذار ١٩٢٩**

obeikandl.com

# معجمات اللغة

## (١)

**بقلم (أناطول فرانس) • تعريب: شفيق بك جبري**

أمطرتني السماء مطراً بارداً هادئاً،فكانت القطرات تسقط عليَّ من سمائها الشمطاء متمهلة في سقوطها، فتقع على الزجاج وقوعاً رفيقاً كأنها تدعوني، ولا تضج إلا ضجيجاً خفيفاً، ومع هذا فإن سقوط كل قطرة يرن في قلبي رنيناً محزناً، وإني لجالس إلى المصطلى استدفئ بحطب الكروم، وأنشق وحل الطريق والحقول إذ المطر المتشابه يحصر فكري في أحلام سوداوية فأجول في هذا الأحلام كل مجال، لقد أزف الرحيل، وبسط الخريف ستائره الرطبة على الشجر والغابات، واهتز الشجر المصوات في هذه الليلة لأول خفوق أجنحة الخريف في السماء الشمطاء.

وها هي الكآبة الهادئة قد أتت من الغرب مع المطر والضباب، كأني بالطبيعة قد خرست فلا تسمع فيها جرساً ولا صوتاً، يتناثر الورق الأصفر في الحرجات فلا يحف في تناثره، وقد سمتت الحيوانات الخاضعة خضوعاً لا شكوى فيه ولا ضجر، إنك لا تسمع إلا صوت المطر، قد يثقل هذا الهدوء الطويل على شفتي وعلى أفكاري، وكنت أحب أن لا أقول شيئاً، فليس لي إلا فكر واحد وهو فكر الذهاب.

آه! لم يطردني الظلّ أو المطر، أو البرد، فقد تحسن في عيني البرية ولو لم تبتسم ابتسامها، إني لا أحبها لجذلها دون غيره، فأنا أحبها أيضاً لأني أحبها، فهل تضعف في قلوبنا منزلة الذين نحبهم في حزنهم وكآبتهم؟

كلا... فقد يعز عليّ أن أغادر هذه الغابات والكروم، وإني وإن قلت سأجد في باريز الحرارة اللطيفة للمواقد التي أحببتها، وأسمع فيها كلام الأساتذة المنتخب، وأرى جميع صور الفنون التي جعلت زينة الحياة الدنيا، فأنا اسف على الحرجات التي أتنزه فيها وأقرأ الشعر في ظلالها، وعلى هذه الغابات الصغيرة التي تحف لهيب الريح الرخاء، إني آسف على شجرة البلوط الكبيرة في الحقل الذي ترعى فيه البقر، وعلى الصفصاف الأجوف في شاطئ الساقية، وعلى طريق الكروم التي كان القمر يطلع من أفقها، إني آسف على جلابيب الورق وأغطية السماء التي كانت تحنو علي ولا حنو المرضع على فطيمها، ويترك المرء تحتها كل آلامه.

لقد كنت أحس أبداً بمرارة الرحيل، فإني أشعر الشعور كله بأن الرحيل إنما هو جزء من الموت، وهل الحياة إلا سلسلة موتات جزئية!

إن المرء ليفقد كل شيء في ساعة ويترك في طريقه كل شيء، وفي كل خطوة من خطانا نفصم رابطة من الروابط التي تربطنا بالمخلوقات ولا نراها، أفلا تجد في هذا كله موتاً مستمراً؟

آه! إن هذه الحالة لشديدة، ولكنها حالة البشر، فهل يستولي علي الألم منها؟ هل أعرض صورة أشجاني الباطلة؟ هل أجلس هنا أمام المصطلى، فأسمع المطر يقع، وأنظر إلى النار السريعة تخرج ألسنتها، فتمسحها بالحطب وكأنها تتلمظ!

هل أتعزى من دون سبب؟ كلا إني سأنفض أبخرة الخريف، وأجتهد في عمل يومي هذا، وسيمضي لي كلام في كتاب من الكتب، سأبحث عن

هذه الآداب الصالحة التي هي رقة الحياة وشرفها، لقد عاد التلاميذ إلى مدارسهم من أسبوع وشرعوا في تحبير الخطب، وفي الترجمة والكتابة، وأنا تلميذ قديم فسأكتب صفحة مثلهم، فلا أعود أسمع المطر يوصيني بالكسل والنوم.

إني أرى كتاباً صغيراً مهملاً يوحي إلي منظره الشريف بالبسيط أفكارَ شغلٍ وعمل، لقد غطي هذا الكتاب تغطية شديدة بغطاء من قطن رقيق أسود، وورق من جلد المعز وعليه علامات الكتب المدرسية، في الحقيقة إنه كتاب مدرسة واسمه: «المعجم اللغوي الجديد المدرسي المصور ومؤلفه غازيه Gazier أستاذ المحاضرات في كلية الأدب في باريز» وقد نسي هذا الكتاب من بضعة أيام أحد التلاميذ فوقعت عليه يدي مرات عديدة وتصفحته عن رغبة وميل.

الكتاب حديث عمره ستة أشهر، طبع الطبعة الأولى سنة ١٨٨٨، غير أني لا أستند في الكلام عنه إلى هذه الحداثة الباطلة الذاهبة التي يصبحها في الأغلب قدم لادواء له، فقد تولد طائفة كبيرة من الكتب متقدمة في السن، في الجامعة كثير من الذين ينتحلون آراء غيرهم، ويستنسخ بعضهم كلام بعض، وقد يكون الابداع في مادة التعليم أندر وأصعب منه في سائر المواد.

كتاب الموسيو غازيه جديد بخطته وتركيبه وروحه، تصوره مؤلفه فعمله على طراز لم يسبق إليه، فهو خليق أن تقال كلمة عنه، على أنه معجم في اللغة، وقد جننت بهذه الكتب.

روي بودلير Baudeleaire إنه لما كان شاباً مغمور الصيت، أحب أن يقابل تيوفيل غوتيه Theophile Gautier فتقبله الأستاذ، وسأله هذا السؤال: «هل تقرأ معجمات اللغة؟».

فأجابه بودلير عن مسألته بأنه كان يقرأ معجمات اللغة ويبتهج بقراءتها، وقد كان غوتيه الذي انصرف إلى مطالعة مفردات في الفنون والصناعات لا يحصيها إحصاء يرى أنه لا يليق بالشاعر أو بالكاتب أن لا تسره قراءة مفردات اللغة وتفاسيرها، وكان مولعاً بالكلمات يحبها حباً جماً، ويعرف طائفة عظيمة منها، وإذا أثنى على بودلير لقراءته معجمات اللغة فكم يكون مبلغ ثنائه على صديقنا الموسيو جوزه ماريا دي أريديا Jose - Maria de HEREDIA [1] الشاعر المبرز الذي كان يجهر بأن قراءة معجم جان نيكو Jean Nicot تستثيره وتنشئ في قلبه من اللذة والسرور مالا تنشؤه قراءة (الحراس الثلاثة)[2] انظر إلى مخيلة رجال الفنون فقد كان جوزه ماريادي أرديا يزعم أن حروف هجاء الأحجار الكريمة، أو فهرست متحف المدافع أشد تحريكاً للقلوب من مطالعة الروايات، أما أنا فلا أجد عادة للكلمات معنى أعظم من المعنى الذي تجعله لها المصطلحات فقد كنت في الأغلب من الأوقات أهتم في معجمات كبيرة كأنها رياض ملتفة، والسبب في هذا أني أرى أن الألفاظ إنما هي صور وما المعجم اللغوي إلا عالم قد رتب بحسب ترتيب حروف الهجاء، وإذا نظرنا إلى الأمور نظرة صادقة فإننا نجد أن معجم اللغة إنما هو الكتاب الذي لا يعلوه كتاب، فإنه يشتمل على التصانيف بمجامعها، فما عليك إلا أنْ تستخرجها منه، وهل أنت تعلم بماذا كان يشتغل آدم لما خرج من بين أيدي الله؟ فقد جاء في التوراة أنه شرع في تسمية الحيوانات بأسمائها فوضع في فاتحة أمره معجماً للتاريخ الطبيعي، ولم يكتب هذا المعجم لأن الفنون لم تنشأ بعد في عصره، وما حدثت الفنون إلا بعد حدوث الخطيئة، آدم هو أبو البشر وأبو المعجمات اللغوية، ومن الغريب أنه لم

---

[1] شاعر فرنسي كان عضواً في الأكادمية (١٨٤٢ ـ ١٩٠٥).

[2] رواية مشهورة ألفها الكساندر دوما (الأب).

يكن في العصور المتقدمة والقرون الوسطى من المعجمات إلا القليل، ولم يرجع عهد تفسير الكلمات إلا إلى القرن السابع عشر، ولكن ما أعظم التقدم الذي يقدمه هذا التفسير من ذاك العصر! وما أجل الخدمة التي خدمها! فإن اللغات الميتة واللغات الحية بأجمعها والعلوم المحدثة، والفنون بحذافيرها لها في يومنا هذا معجمات تحتوي على مفرداتها، وما هذه المعجمات إلا بيانا في شرف العصور الحديثة.

قلت لكم إني أحب معجمات اللغة فأنا لا أحبها لمجرد فائدتها العظيمة، ولكني أحبها لأنها تحتوي على شيء جميل فخم انظر إلى معجم غازيه أو إلى غيره من المعجمات، وتصور أنك ترى روح وطننا كله في هذا المعجم.

ليتصور ذهنك أن في هذا الصفحات التي يبلغ عددها ألف صفحة، أو ألفاً وما ئتي صفحة عبقرية فرنسة وطبيعتها.

ليتصور ذهنك أن فيها أفكارنا وأفكار أجدادنا، وأفراحنا وأفراحهم، وأعمالنا وأعمالهم، وآلامنا وآلامهم، ليخطر ببالك أن في هذا المعجم آثار الحياة العامة، وحياة الدور والمنازل، آثار الذين استنشقوا الهواء الصالح وشموا النسيم الرقيق الذي نشمه اليوم، ليخطر ببالك أن كل كلمة من كلمات المعجم يقابلها فكر من الأفكار كان فكر طائفة جمهور من الناس لايحصى مقدارهم.

ليهجس في صدرك أن كل هذه الكلمات المجموعة إنما هي لحم الوطن والبشرية ودمهما وروحهما.

* * *

في أغنية من أغانينا القديمة أن الكونتس دي روسيللون De Roussillon بنت ملك فرنسة، نظرت ذات يوم من شرفة برجها إلى حرب كبيرة دارت بين والدها وزوجها بسبب مهرها، وقد جرت الدماء في هذه الحرب ودامت النهار كله، ولّما هدأ الليل وسجا، نزلت الكونتس من برجها وذهبت إلى الموتى تصوب فيهم نظرها وتصعده، ذهبت إلى «موتاها الكرام الملاح المنبسطين على العشب والندى» ثم جاء في هذه الأغنية أن الكونتس «أحبت أن تقبل هؤلاء الموتى كلهم» وأنا أيضاً أشعر في قلبي بحنو عظيم أمام كل كلمات اللغة الفرنسية، إني أشعر برأفة كبيرة أمام طائفة التعابير البسيطة أو الفخمة، إني أحبها كلها، فهي تستميلني وتستفزني، وإني لألمس الكتاب الذي يتضمنها لمساً شديداً ينم عن مبلغ اهتزازي وارتياحي، وهذا السبب الذي من أجله أحب حباً خاصاً معجمات اللغة الفرنسية.

* * *

قلت لكم إن معجم غازيه حديث بخطته وإنفاذه، فقد مزج بمفردات اللغة الفرنسية عناصر دائرة معارف عامة فهو يحتوي على المصطلحات العلمية التي انبسط أفقها في القليل من السنين، ويتضمن خرائط وصوراً، وهذا وجه الأبداع فيه، وقد يسرني أن أرى الجامعة أخذت ترضى بالتعليم بالصور، فقد كان الأساتذة في زمني، أي في الزمن الذي كنت فيه في المدرسة، وما هذا الزمان ببعيد، لا يبالون بالتصاوير، وكانت الصور في نظرهم أدوات لهو وتسلية، وكان أستاذي في الصف الرابع يعتقد أنه لايجدر بالتلميذ الذي يتعمق في درس اللغات القديمة وآدابها أن ينظر إلى صورة من الصور، وأني لأذكر وفي نفسي شيء من هذه الذكرى الأليمة، أن خادم المدرسة وجد في يدي طبعة قديمة من (بستان الأصول اليونانية ) التي يقدسها كل العالم، وهي نسخة مجلدة بجلد

العجل، قد أفسد بعضها أحد التلاميذ، فأخذها الخادم مني وفتحها بعنف ثم مزق الصورة المصورة على جلد الكتاب، وكانت الصورة تمثل طفلاً لابساً ملابس قديمة، يفتح باباً من أبواب دور أحد السادات قد صور على طراز عصر لويس الرابع عشر ؛ ويدخل حديقة مزينة بحسب ذوق لونتر Le Notre [1] يدخل حديقة «تجعل أصولها المغذية الأرواح عليمة». قد كانت هذه الصورة بريئة، وكان رمزها بسيطاً، وقد صورت على أسلوب حسن ؛ وهي متينة بعض الشيء ولم يخش رهبان بور ـ رويال Port - Royal [2] أن يزينوا بهذه الصورة كتاباً خاصاً بتلاميذ المدارس الصغيرة فإن قليلاً من الفن لم يرعبهم في تشددهم.

غير أن هذه الزينة المحرمة التي تقبلها قديسو لانوفل تيبارد La Nouvelle Thebarde قد أهانت صاحب مدرستي الجاهل، وكأني أراه الآن وهو يمزق الصورة الظريفة بأصابعه الثقيلة القذرة، وقد يخامرني شيء من فرح الانتقام بعد خمس وعشرين سنة عندما أعرض جنايته على رجال الذوق.

تحريم الصور مؤلم ولا سيما في دروس التاريخ، فإن المرء لا يدرك شعباً من الشعوب إدراكاً واضحاً إلا إذا رأى الآثار التي تركها هذا الشعب فقد يؤثر التاريخ المصور في المخيلة تأثيراً بليغاً، ولكنهم كانوا يعلموننا حياة الشعوب كما كانوا يعلمونها المناجذ (جمع الخلد) حتى ظهرت كتب الموسيو فيكتور دوروي Victor Duruy وكان فيها صور أردية وأبنية قد أنشأت هذه الكتب انقلاباً في الخواطر، ويسرني أن أرى النجاح العظيم في هذا السبيل فقد تصفحت في السنة الماضية تاريخاً يونانياً وجدت فيه من كثرة التصاوير على قدر ما يسمح به سعره الزهيد وحجمه الصغير.

---

[1] بونز Le NOTRE: رسام يصور البساتين والحدائق ولد في باريز (١٦١٣ ـ ١٧٠٠).

[2] دير في فرنسة هدم سنة ١٧١٠.

المطابقة بين التصوير وبين تفسير مفردات اللغة فكر جيد، فليهنأ المسيو غازيه، فقد وضع في معجمه مقدار ألف من التصاوير الصغيرة، التي تتمم عند الحاجة التعريفات الموجزة المبهمة ضرورة،وقد تسليني وتعلمني هذه الصور الصغيرة، وأظن أنها تسلي وتعلم الأولاد أيضاً إذا لم يكونوا أجدَّ أو أعلم مني، ولكن الحذق الذي تظهر لي آثاره في هذا التصاوير إنما هو الحذق بالصور المجملة، فإنك تجد أمام كلمات: سفينة، كنيسة، الأسلحة، القصر، الهيكل، جهاز الهضم، القاطرة.... صور هذه الكلمات كلها مع أسماء الأجزاء التي تتألف منها، فإنك تجد مثلاً أمام كلمة كنيسة صور مداخل هذه الكنيسة ومخارجها وأجزاء أماكنها وأعمدتها وجدرانها، فليسعد تلاميذ هذا العصر فقد ظفروا بكتب محبوبة بلغت من السهولة المبالغ.

**جريدة الفيحاء العددان ٦٥ و٦٦**

# هل تقرأ معجمات اللغة

روي ـ بودلير (Baudelaire) إنه لما كان شاباً مغمور الصيت أحب أن يقابل غوتيه Gautier فاستقبله (غوتيه) وسأله هذا السؤال «هل تقرأ معجمات اللغة» فقال بودلير إني أقرأها وابتهج بقراءتها وقد كان (غوتيه) يرى أنه لا يليق بالشاعر وبالكاتب أن لا تسره قراءة مفردات اللغة وتفاسيرها وقد كان مولعاً بالكلمات يحبها حباً جماً ويعرف طائفة منها غير يسيرة.

أولعت بالكلمات على نحو (غوتيه) فأنا أحبها حباً جماً فقد تعودت أن أطالع معجم اللغة كل ما أمكنتني مناهز الفرص، وما كنت أتصفح هذا المعجم لاملاء ذهني بمفرداته، وإنما كنت أرى فيه شيئاً لا تحضرني عبارة للافصاح عنه.

إن لهذه المخلوقات الصغيرة سراً من الأسرار تدركه العقول فهي ناطقة شاعرة فيها حياة، ولها حركة وحس.

إنها تدلك على أشياء كثيرة، فهي تبين لك أخلاق الذين أنشأوها وتصوّر لك مبالغ عواطفهم وعقولهم ومقادير حضارتهم ومراتب قومهم في العلوم والفنون وفي الصناعات و التجارات والزراعات وفي مرافق الحياة بمجامعها، فإذا شئت أن تعرف مثلاً مقدار رقة العرب أو خشونتهم ولطف حسهم أو غلظته أو إذا شئت أن تعرف شيئاً من عاداتهم وتقاليدهم وأوضاعهم فتصفح معجماً من معجمات لغتهم إن هذه

الألفاظ التي تجدها فيه إنما هي مرآة ينعكس فيها ما أنت راغب في معرفته، فاجمع إذا شئت الألفاظ الدالة على صفات المرأة في كلام العرب أي في معجمات لغتهم فإنك تدرك يومئذ مبلغ إحاطة العرب بمحاسن المرأة ومقابحها، أو خذ لك مثلاً غير هذا المثل فإنك تخلص إلى نتيجة واحدة أن هذا الملك المترامي الأطراف الذي بسط العرب ظلالهم عليه لا يدلك عليه مثل معجم لغوي تدرك فيه ظواهرهم وبواطنهم من الألفاظ التي أبدعوها فأفصحت عن عواطفهم وأخلاقهم.

إنك لا تكاد تعرف مقدار اللذة التي تنشأ في نفسك من قراءة لفظة تدلك على فكر كان من أفكار آبائك وأجدادك الأولين، أو على عاطفة كانت من عواطفهم، إنك لا تكاد تعرف السرور الذي يدخل على قلبك من مشاركتك لهؤلاء الآباء والأجداد في فرحهم وحزنهم وفي سرورهم وألمهم، وكيف لا تشاركهم في هذا الفرح والحزن وفي هذا السرور والألم إذا كنت تستعمل الألفاظ التي استعملوها فتصور بها فكراً كان فكر آبائك من قبل؟

ذهب قومك وبقيت ألفاظهم وأفكارهم وماتوا وعاشت من بعدهم... ولست أجد شيئاً يصل حاضرك بماضيك مثل معرفة هذه الألفاظ الساحرة التي يشتمل عليها معجم من المعجمات.

يقول (أناتول فرانس) في رواية من رواياته «معرفة اللغة واجب وطني على كل رجل فرنسي».

لقد صدق (أناتول) في كلامه وأي واجب وطني أعظم من الاتصال برهطك الأولين الذين تستضيء بضيائهم! أم أي واجب وطني أجلّ من الاحتفاظ برسومهم وآثارهم، هب الليالي ذهبت ـ معاذ الله ـ بهذا الكنز الثمين الذي أورثنا إياه آباؤنا الأولون، هب الليالي درجت بهذه اللغة

الكريمة و لم تبق منها لفظاً من الألفاظ، أين يكون وطنك بعد هذا كله وماذا يكون حاضرك وآينك.

خذ أي لفظة وتصور ما تدلك عليه هذه اللفظة... تصور ما توحيه إلى ذهنك من المعاني السامية، خذ لفظة بردة مثلاً يقول لك الفيروز أبادي في كتابه «بردى نهر دمشق الأعظم مخرجه الزبداني هذا صحيح، ولكنك إذا كنت من دمشق الشام ووقع نظرك على كلمة بردى خطرت ببالك أمورت تعالت أن يحيط بها شيء من الكلام إنك لاتتصور بردى فقط ولا تتصور هذا الوادي الهادئ الذي يقيك لفحة الرمضاء، ولا هذا الدوح المنبسط على عدوتيه الحاني عليك ولا حنو المرضعات على الفطيم، ولا هذا الزلال الذي يرشفك إياه على ظمأ وهو ألذ من المدامة للنديم، ولكنك تتصور رهطك الأولين الذين اتسعت أفياؤهم على ضفتيه ويذهب خاطرك إلى عظمتهم وعزهم فتتصور جماعتك الذين شربوا من بردى واستظلوا بظلال شجره ثم عصف الدهر بهم فألمأت عليهم الأرض التي يشقها بردى فلم يبق من سلطانهم وعزهم إلا خاطرة أليمة تهيجك وتثيرك في صباحك ومسائك، وتظل تؤلمك وتوجعك حتى تدرك العظمة التي كانت لجماعتك من قبل، وتصل إلى هذا العز الذي تقلبوا فيه... وإنما الأمم ذكريات مديدة هذا هو معنى كلام أناتول فرانس «معرفة اللغة واجب وطني».

أي شيء يمكن في قلبك حب وطنك أكثر من هذه الذكريات! ولا تهيج هذه الذكريات إلا ألفاظ مبعثرة في معجم من معجمات اللغة.

راجع كثيراً من الألفاظ التي كانت في زمن بني أمية أو بني العباس أو في زمن صلاح الدين مثلاً راجع هذه الألفاظ الدالة على أمور كثيرة لا

تجدها في عصرك هذا وأعرضها على خاطرك حتى تعرف كيف تحيي أحرف قليلة ذكرى أحقاب مديدة.

ما أقوى هذه المخلوقات الصغيرة! ما أصبرها على شدائد الأيام!

وأنت إذا تأملت في اللغات التي تعاقبت على الشام ونظرت في الذي انقرض منها علمت بما للكلمات من قوة وسلطان، فقد استفاضت في الشام قبل الإسلام لغات كثيرة و لم يبق منيعة الجانب غير لغة العرب فأين البابليون ولغتهم، وأين الكنعانيون ولسانهم، وأين الكلدانيون وبيانهم!

ذهبت اللغات الحثية والآرية وذهبت السريانية، وكان في الشام لغات لاتينية ويونانية فلم يبق إلا بيان قريش وحده، وما استطاعت أمة من الأمم في قديم الدهر وفي حديثه أن تطفئ نور هذا البيان.

ما أعظم هذه المخلوقات الصغيرة إنها روح الوطن وعبقريته.

**مجلة الكشاف**

# الشوقيات

لا أدري كم زورة زرت مسجد بني أمية في دمشق الشام، وكم طوفة طفت به من جميع أطرافه.

ولست أعلم كم جولة جلت في صحنه، وكم لعبة لعبت فيه في حداثة السن وغضاضة العود، ما أذكر أني فطنت في زورة من زوراتي، أو جولة من جولاتي لسلطان بني أمية، ومعاذ الله أن أكون ناقضاً لعهدهم كافراً بنعمتهم، متعلقاً بغير أهدابهم، ولقد نزلوا مني بمنزلة الحبيب المكرم، فهم الجبة والرداء، وهم الشدة والرخاء، وهم العزة القعساء، والداهية الدهياء، وإذا كنت أحبهم وأنا أصوب النظر وأصعده في سيرهم، وأسرار ملكهم وسلطانهم، أيام كان برد الصبا قشيباً، وعوده غضاً رطيباً فأجدر بي أن أزيد في محبتهم في أيام اختلجت فيها العيون، واضطربت فيها الشجون، وضاعت الخدور والحجال، وهانت النساء والرجال وخنعت الديار والحلال، أجل لا أذكر أني تصورتهم في ذهابي إلى مسجدهم، وإيابي منه، حتى هبط دمشق الشام في السنة الماضية المشيد بذكرهم والمغني بدولتهم، باعث الشعر من مرقده، شوقي، فاحتفت دمشق به في مجمعها العلمي في جوار مسجد بني أمية، ونشطت إلى الحفاوة جماعات وجماهير، وأنشدت قصيدة شوقي في مناقب بني أمية وهذا بعض ما علق بالحفظ منها:

**بنو أمية للأنباء ما فتحوا**

**وللأحاديث ما سادوا وما دانوا**

كـانوا ملوكـاً سـريرُ الشـرق تحتهـمُ

فهل سـألت سـرير الغـرب مـا كـانوا

عـالين كالشـمس في أطـراف دولتهـا

في كـل ناحيـة ملـك وسـلطانُ

يـا ويـح قلـبي أمهمـا انتـاب أرسمهـم

سـرى بـه الهـم أو عادتـه أشـجانُ

بالأمس قمـت علـى الزهـراء أندبهـم

واليـوم دمعي علـى الفيحـاء هتـانُ

في الأرض منهـم سمـواتٌ وألويـةٌ

ونـيّراتٌ، وأنـواء، وعقبـانُ

معـادن العز قـد مـال الرغـام بهـم

لـو هـان في تربـه الأبريـز مـا هـانوا

لـولا دمشـق لمـا كـانت طليطلـة

ولا زهـت ببـني العبـاس بغـدانُ

مـررت بالمسـجد المحـزون أسـأله

هـل في المصلـى أو المحراب مـروانُ؟

تغـيّر المسـجد المحـزون واختلفـت

علـى المنـابر أحـرارٌ وعبـدانُ

فـلا الأذان أذان في منارتـه

إذا تعـالى ولا الآذان آذانُ

وما أظن أنه دخل على قلبي من السرور مادخل عليه في اليوم الذي أنشدت فيه هذه القصيدة، فكنت لا أمر بعد سماعها بالمسجد الأموي إلا ذكرت بني أمية وتمثلت خلفاءهم، وكنت أحسبني في بعض الجمع وأنا أجلس في جوار المسجد في «الحميدية» إني في عصر الأمويين، فقد كان يعتريني شيء من الدهش والتحير لا أدري ما هو، وظلت هذه حالتي، وظل الذين سمعوا قصيدة شوقي يرددون أبياتها في مجالسهم زمناً طويلاً، فعلمت بعد ذلك اليوّم ما هو سحر البيان، وعرفت كيف يكون أثر الشعر في القلوب.

ولا أنسى جلسة جلستها إلى شوقي في نزل الخوام في دمشق، وكنا أربعة، لا ننبس ببنت شفة، ما خلا واحداً منا كان يساقط شوقي الأحاديث والأخبار، وكنت في خلال ذلك أنظر إلى وجه شوقي وأمعن في النظر إليه فكنت أحسبني مع رجل تجاوز أفق البشر، وذهب في سماء غير سمائنا، وضرب في جوٍ غير جونا، وكان أثناء الأحاديث يسكت قليلاً فتدور عيناه يمنة ويسرة، ثم يأخذ بأنامله فيضعها على جبينه، وتتحرك شفتاه قليلاً ثم يرجع إلى الحديث، بعد أن يغيب في عالم يخيل إليك أنه غير هذا العالم، وقد فعل مثل هذا الفعل في نصف ساعة أربع أو خمس مرات فكأنه في غيبته التي وصفتها كان يخطر بباله خاطر من الشعر فيقيده في ذهنه، فعلمت بعد ذلك كيف يهبط الوحي، ورأيت كيف يتدفق الإلهام.

* * *

وما يذهل فكري عن ليلة قضاها شوقي في دمشق في دار من دورها، وقد احتشد في هذه الليلة كثير من الخلق، وكنت مع المحتشدين وبيننا أوانس وسيدات، وكان النسيم في ليلتنا عليلاً، وكانت الخواطر بهجة

وفرحة، وكأنما الطبيعة قد شاركتنا في السرور... وقد جلس شوقي نبذة لم يضحك ولم يبسم ولا نبس ولا تكلم، فلما غنى المغنون وضرب الضاربون وفي جملتهم فتى من مصر صبيح الوجه حسن الصوت، ماهر في الضرب بالعود جاء به شوقي من مصر وصحبه في زيارته الشام تحرك شوقي وأخذ الطرب منه مأخذه، فلما هدأ المغنون جلس شوقي إلى الفتى، فهش وبش، وحكى وتكلم، وكان للابتهاج أثر في كل ناحية من نواحي وجهه، فرأيت في هذا الانبساط رمزاً من الرموز، وعلمت أن في هذا الانشراح سراً من الأسرار نمَّ عن حالة من حالات شوقي النفسية، فلما انقضت الليلة ذهبت مع الذاهبين وأنا أتمثل هوى شوقي وطربه.

ذاق شوقي لذة الدنيا، وتقلب في أعطاف النعيم، فظهرت آثار هذا الترف في شعره وجسمه، فغنى بفروق التي أفرغت فيها الطبيعة سحرها، وخلعت عليها جمالها، فاستنشق هواءها وشرب من عيونها، واستضاء بشمسها، وجلس إلى غيدها أو أنس، وملأ نظره من ملائكة وحور، مترعات من النعيم، راويات من السرور، عاثرات من الدلال، ناهضات من الغرور ناعمات، طيبات العرف، ذاهلات عن الزمان ؛ مشرفات على البحور والممالك، وقضى ليالي في فروق مادرى لولا صياح الديك أين عشاؤها من فجرها، فلم يغفل في شعره، ذكر صبوحه وغبوقه في «بندلار» و«شرشر» و«ترابيا» و«بيوك» فقد ملكت عليه فروق عقله ولبه فهام بها، وسما إليها «بجده وبخاله» فهي التي أخرجت بيانه للعرب الفصاح حتى استضاء به المشرق فلم تكثر الحمراء من أمثاله، ولا بغداد من نظرائه، فقد صرف الإله خيال شعره إلى فروق، فكان بمنزلة «قيس» وكانت فروق بمنزلة «ليلى» فهو «مجنون فروق» نزهة روحه في كل عام، ونعيم مهجته وراحة باله يغشاها فتحن إليها مطيّة، ويؤوب منها والأشواق ملء رحاله، فلو اخذ الله خميلة لجلالته ما اختار غيرها روضة.

إذا حن إلى فروق حياها تحية كعيون مائها، وربى واديها، أو كالنسائم تغدو وتروح عليها من فوق الرياض، أو كالأصيل يجري عليها عقيقه، وذكر خمائلها وعيونها وما سلف له من اللذات في ناديها، وذكر الشبيبة والهوى، فهو مولع بفروق شَغِفٌ بجيش فروق وأسطولها وعلمها، حتى أنه يرى في كل لون من ألوان هذا العلم رمزاً من الرموز، أو سراً من الأسرار، فكانت حمرته دم البريء عثمان، وكان بياضه نور الشهيد الذي مات ظمآن.

وإذا ودع فروق «جنة الدنيا» سأل القلب عن ليال قضاها فيها كالساعات وتذكر هواء وعيون ماء هُنَّ متاع الدنيا، وشمساً كلما أشرقت في أفق خطرت فيه الحياة، وغيداً أوانس لا منقبات ولا مقنعات.

بيد أن شوقي لم يقتصر على التغني بفروق، فهو يحمل بين جوانبه قلباً مولعاً بكل ما هو جليل فخم في الحياة، وسواء أكانت هذه الجلالة إسلامية أم وثنية، وسواء أكانت هذه الفخامة رومية أم عربية فقد تنقل شوقي في حضارة توت عنح آمون، وتبسط في حضارة رومة، وجال جولة في الإغريق وتغنى بمناقب هذه الحضارات، وأشار بما لها من جلائل الأثار.

استوقف شوقي «أخت يوشع» وسألها عن أحاديث الأولين، واستفهمها واستخبرها، وناجى أولاد «آمون» الذين مشت رومة بمنارهم في الأرض، واقتبست أثينة من أنوارهم، وأنطقوا الحجارة، وبنوا مايبقى على وجه الدهر بناؤه، وناجى عرشهم وعزهم، وأشاد بتاج من فرائده «ابن سيتي» ومن خرزاته «خوفو» و«مينا» ثم استوقف خليليه وطلب اليهما أن يهبطا الوادي، وأن يميلا إلى غرف الشموس، ويسيرا في

محاجرهم، ويطوفا بمضاجعهم، ويخصا بالتحيات الطيبات رفاتهم، ويهتفا بجلالة استمرت أربعين قرنا.

ناجى شوقي جلال الأهرام، وسأله عن البناة،وعن مجالسهم وأنديتهم ليشكو ويفزع، وليبثهم عبث الهوى بتراثهم،، وهتف بالأعاجيب الثلاثة، وذكر أن لها روعة قدسية مثل روعة المعابد، وروحانية مثل روحانية العباد، وقد أسست هذه الأعاجيب من الأحلام، ورفعت من الأخلاق.

وسرح خياله في أنقاض رومة، فبكى تاجاً مزقته الخطوب وصولجاناً ألقت به في التراب، وبكى الطلول والدمن، وغنى بتماثيل كالحقائق، وهتف ببقايا هياكل وقصور تعاقبت عليها الأديان وتوالت فيها الشعوب، وتساءل عن حكمة رومه، ملك تبسط في المشرق والمغرب حتى حسدت الشمس سلطانه.

وجال جولة في الإغريق، وحن إلى علومهم واخلاقهم، فكانت العلوم نور الأديم، وكانت الأخلاق نور السبيل، وصبا إلى شبابهم الذين تعلموا على الفراق والنجوم فلمسوا الحقيقة في الفنون، وأدركوها في العلوم، وحيا أرسطاطاليس شيخ ابن رشد وابن سينا الذي كان في هدى المسيح، ورشد الكليم والذي وحد قبل البنية والحطيم، وبنى الشرائع للعصور، وفصل الأخلاق للأجيال في واضح لَحْبِ الطريق، مستقيم المذهب ؛ ورسائل مثل السلاف تسكر بالمذاق وبالشميم.

أجل تقلب شوقي في هذه الحضارات كلها قديمها وحديثها، فكأن الحكمة التي استنبطها من ترادف السنين والقرون أن الأمم بأخلاقها، فأرسل بيته الخالد على الدهر:

**وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت**

**فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا**

غير أن الذي ملأ قلب شوقي، وشغل خاطره إنما هو الإسلام والخلافة فيه، فلم يحفل برومة وأثينة بقدر ما حفل بفروق والأندلس وجلق ومصر وبغداد وسائر الأصقاع الإسلامية، ولم يناجِ كسرى ورعمسيس بقدر ما ناجى دولة الإسلام ورجالها الذين بنوا ملكاً باذخاً في المشرق والمغرب، وفتحوا الدنيا، وأنهلوا الناس من سلسالها الشبم.

أجل تغنى شوقي بحضارة اسلامية سطعت أشعتها على حين كانت أواسط أوروبة في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء، فتمهل خياله في هذا الملك المديد، واستنزل وحيه من سمائه، فكان ينبوعاً صافياً تتفجر منه ذكريات الإسلام، وفجراً وضاحاً يغني به آثار رجاله، فكل حادث يحدث في فروق ينزف عبرته، وكل مصيبة تصيب مصر تقض عليه مضجعه، فإذا استبكى بكى مع الباكين، وإذا استعطف عطف مع العاطفين، فكان صادقاً في شعوره يخرج كلامه من قلبه فيخلص إلى القلوب، ويتفجر الوحي من خاطره فيتغلغل في الخواطر، وتسيل العبرة على خديه فتبتل بها الخدود، فمن كان في قلبه مجال لم يكن لريب الحوادث فيه جولة، أو كان في عينه دمعة أبقت عليها الليالي، فليقرأ في الشوقيات وصف مانزل بالمسلمين والعرب من سنين غير بعيدة في أقاصي المعمور وأدانيه، فلا يكاد يفرغ من القراءة إلا وقلبه مشغول، ودمعه مضطرب، وخاطر حيران، أيُّ عين لا تبكي، أم أي قلب لا يحزن، أم أي شجر في الخابور يورق إذا سمع هذه الرنات ـ وصاحبها يرثي لمسلمي مقدونية:

**كم مرضع في حجر نعمته غدا**

**وله على حد السيوف فطام**

**وصبية هتكت خميلة طهرها**

**وتناثرت عن نوره الأكمام**

وأخـــي ثمـــانين اســـتبيح وقـــاره

لم يغـــن عنـــه الضعـــف والأعـــوام

وجريـــح حـــرب ظـــامئ وأدوه لم

يعطفهـــــم جـــــرحٌ دَمٍ وأوام

ومهـــاجرين تنكـــرت أوطـــانهم

ضلوا الســبيل مـن الذهـول، وهـاموا

السـيف إن ركبـوا الفـرار سـبيلهم

والنطـــع إن طلبـــو القـــرار مقـــام

يتلفتـــون مودّعـــين ديـــارهم

واللحـــظ مـــاء، والديـــار ضـــرام

أو إذا سمع هذه الأنات في حادثة دنشواي:

نوحـي حمـائم دنشـواي وروعـي

شـعباً بـوادي النيـل ليـس ينـام

إن نـامت الأحيـاء حـالت بينـه

سَـحراً وبـين فراشـه الأحـلام

متوجـع يتمثـل اليـوم الـذي

ضجـت لشـدة هولـه الأقـدام

السـوط يعمـل والمشـانق أربـع

متوحـــدات والجنـــود قيـــام

والمستشـــار إلى الفظـــائع نـــاظر

تدمـــى جلـــود حولـــه وعظـــام

**في كـــل ناحيـــة وكـــل محلـــة**

**جزعـاً مـن المـلأ الأسـيف زحـام**

**وعلـــى جـــوه الثـــاكلين كآبـــة**

**وعلـــى وجـــوه الثـــاكلات رغـــام**

أجل شغل الإسلام خاطر شوقي، وملكت حضارته عليه قلبه، فكان في فرصة من الفرص يناجي جلق، وفروق، ومقدونية، والأندلس، والأهرام، فإذا هوت الخلافة عن بقعة من هذا البقاع، ونزل الهلال عن سماء من سمواتها، اهتز شوقي، وطفق يسأل عن الخؤولة والأعمام فيها، ويناجي عيسى بن مريم، ويذكره برحمته ومحبته وعصمته وسلامه، وينعي على عصائبه الذين ظلموا الإله وروحه بفظائعهم ومناكرهم.

أو إذا ألغوا الخلافة في فروق، أوى لها شوقي واستعان بضجيج المآذن والمنابر وبكاء النواحي والممالك، وأشار إلى وله الهند وحزن مصر والشام والعراق وفارس، واستغاث بالمسلمين لحرة مؤودة قتلت بغير جريرة، وعاتب الذين هتكوا ملاءة فخرها، ونزعوا عن الأعناق قلادتها، ونضوا عن الأعطاف وشاحها، وبكى على الحسب الذي طاح بين العشية والصباح، وتحسر على هذه العلاقة التي جمعت صفوف المسلمين.

وإذا مالأ سلطانٌ من سلاطين آل عثمان عدوٍّ بلاده، حشره في زمرة الطواغيت، ونعي عليه إلباسه الإسلام ذلاً، وكسوته خلفاء الله أثواب القظين، وأدخل دولته في دول الحالمين الواهمين.

أو إذا نزل سلطان من سلاطين الترك عن عرشه ناجى «يلدز» وسأله عن الأواني:

المترعـــات مـــن النعيـــم الراويـــات مـــن الســـرور
العـــاثرات مـــن الـــدلال الناهضـــات مـــن الغـــرور
الآمـــرات علـــى الـــولاة الناهيـــات علـــى الصـــدور
الناعمـــــات الطيبـــــات العـــــرف أمثـــــال الزهـــــور
الذاهـــلات عـــن الزمـــان بنشـــوة العيـــش النضـــير
المشـــرفات ومـــا انتقلـــن علـــى الممـــالك والبحـــور
مـن كـل بلقيـس علـى كرســ ـــي عزتهـــا الوثـــير
أمضـى نفـوذاً مـن زبيـدة في الأمـــارة والأمـــير
بـين الرفـارف والمشـارف والزخـــارف والحريـــر
والـروض في حجـم الدنـا والبحـر في حجـم الغديـر
والـــدر مؤتلـــق الســـنا والمســـك فيـــاح العبـــير
في مسـكن فـوق السـماك وفـــوق غـــارات المغـــير
بـــين المعـــاقل والقنـــى والخيـــل والجـــم الغفـــير

ثم صرف المناجاة إلى شيخ الملوك[1] وأعرب عن منزلته في الفؤاد والضمير، وانطلق في بيان ما كان له من النهي والأمر، وما كان من تسبيح القوم له في الرواح والبكور ومن سجودهم لعظمته ثم خاطب الجيش الذي دخل السرير عليه وانتزع الملك من يديه وبشره بان الزمان سيتلو صحيفة غراء مذهبة السطور في مدح رجاله ثم بلغ أمير المؤمنين [2] سلام مصر ومبايعة أهلها في الضمائر والصدور، فكان يبكي بعين على

[1] شيخ الملوك: السلطان عبد الحميد.

[2] السطان محمد رشاد.

عبد الحميد بعد انحطاطه عن عرشه، ويذكر السارحات البارحات في قصره، ويضحك بعينه الأخرى إلى الجيش الذي نكب عبد الحميد، وبايع محمداً على كرسيه، وما أظن هذا الاضطراب إلاّ أتياً من شدة حرص شوقي على فروق رجالها، فكان إذا بكى على سلطان تقلص ظله ضحك لسلطان اتسعت أفياؤه أملاً منه أن يبقى الإسلام ضارباً بجرانه، ساطعاً بمصباحه، ناصعاً بأوضاحه.

وقد بلغ من حب شوقي الترك والتركيات أنه كان يتصورهم ويتمثلهم في كل خاطر يخطر، فإذا وصف النحل وبحث عن تدبيره لمملكته وأشار إلى عجائب عقله ونشاطه وقعت التركيات في خلده فوثب على الفرصة وقال عن النحلة:

**ذائدة عن حوضها طاردة من كدرهْ**

**تقلدت إبرتها وأدرعت بالحبرهْ**

**كأنها تركية قد رابطت بأنقرهْ**

ولا بدع في ذلك فإن الدم الذي يجول في شوقي تركي، وإن كان اللسان عربياً، هذا هو الوحي الذي نزل على شوقي فأفاضه على الناس فتوغل في الخواطر وامتزج بالنفوس، وأخلق بمن يناجي في شعره أهرام مصر وسلطان الرومان في المغرب والمشرق وحكمة الإغريق أو ملك بني أمية في الشام والأندلس، أو حضارة الإسلام أو رقة فروق أن يكون في كلامه شيء من الروعة تخلعها عليه هذه الأثار الخالدة والرسوم الناطقة، وقد استعار شوقي للصور التي صورها من قلائد المتنبي وجزالة أبي تمام وسلاسة البحتري ما أعانه على المهارة في التصوير فما شوقي إلا ظل هؤلاء الشعراء الثلاثة في عصرنا، ولئن عرف زهير بحولياته والنابغة بهاشمياته، وجرير والفرزدق بنقائضهما، وأبو النواس بخمرياته، وأبو

العتاهية بزهدياته، وأبو تمام بمراثيه والبحتري بمدائحه وابن المعتز بتشبيهاته، والصنوبري بروضياته، وكشاجم بلطائفه، والمتنبي بقلائده، فقد عرف شوقي بجنونه بفروق وما أدى إليه هذا الجنون من التغني بالخلافة والإسلام.

**جريدة الميزان العدد ٦٧ سنة ١٩٢٦**



obeikandl.com

# الشاعر
# مصلح البشر

شـرفاً يـا ربيعـة بــن نــزار خص قوماً وعمكـم أجمعينـا
غــدر النــاس أولاً وأخـــيراً وكرمتــم فكنتــم الوافينــا
ما نقضتم عهداً ولا خنتم غيبـاً وحاشـا لمجدكـم أن يكونـا
نحـن في خلـة الصفـاء وأنتـم كـاليدين اصطفت شمال يمينـا
ضمنـا الحلـف فاتصلنـا ديـارا في المقامـات والتففنـا غصونـا
لم تقلـب قلوبنـا يـوم هيجـاء وليسـت أيـدي سـبا أيدينـا

الأبيات للبحتري، والبحتري أنبتته منبج كما أنبتت أبا فراس الحمداني صاحب الروميات، وعبد الملك بن صالح الهاشمي جبل قريش، ولسان بني العباس ومن به يضرب المثل في البلاغة، فكان لطيب هواء منبج وعذوبة مائها ورقة نسيمها وصحة تربتها أثر على شعر البحتري، وقد ظهر هذا الأثر في اعتدال طبعه، وعذوبة لفظه، واختلاط شعره بالنفس، وللبحتري براعة في تصوير الأخلاق، والقصد فيه وأي خلق أكرم من الوفاء بالعهد، والحرص على الغيب، أم أي خلق أفضل من تعاطف الرجال، واتصال القلوب، والتفاف الأهواء، أم أي خلة أحسن من وحدة القلوب في رخاء السلم وشدة الهيجاء.



obeikandl.com

الأخلاق الرذيلة مستفيضة في كل عصر، وشائعة في كل شعب، وقديماً تبرم الناس بلؤم الطبايع، وفساد النحائز.

والأخلاق الفاضلة لم يخل منها عصر، و لم يحرمها شعب، ففي كل دهر مشت الفضيلة والرذيلة، وفي كل جيل فشا الكرم واللؤم، فالشاعر الذي يستطيع أن يصور الرذيلة في أقبح صورها حتى تشمئز منها النفوس، وتنقبض عنها القلوب، أو الذي يقدر على أن يعرض الفضيلة في أتم معارضها، ويصبها في أروع قوالبها حتى تتطاول لها الأعناق وتطمح إليها الأبصار لخليق أن يكون له أبلغ الآثار في إصلاح البشر.

ولئن كانت طائفة من الطبايع رذيلة قد تمكن منها اللؤم فمن الممكن إصلاحها علىتراخي الأيام كما يصلح المصلحون أنواع الحيوانات والنباتات، فالنبات الذي ينبت على طبيعته لا بد من تشذيبه فإذا شذب تحسن نوعه.

يقول الأستاذ العقاد في مقال له عن التجديد مدون في مجلة «الحديث» الغراء.

«ومن المجددين شاعر يمدح من يستحق المديح من الأحياء والأموات ويشرح فضائلهم ويجلو لنا نفوسهم، وليس من المجددين شاعر يتحاشى كل مديح لكيلا يتهم بالتقليد.

شرح الفضائل وجلاء النفوس سبيل إلى تثقيف الأخلاق وإصلاح الطبايع وتحسين الأنواع، فإذا كان الشاعر قديراً على تصوير الأخلاق استطاع أن يعرض على الأنظار أنماطاً من الأخلاق الفاضلة، وضروباً من الشيم المحمودة فتنبري النفوس للتخلق بهذه الأخلاق والتطبع بهذه الطباع».

لاشك في أن العالم طافح بالخير والشر، ومملوء بالفضيلة والرذيلة ومثل العالم كما قال أناتول فرانس كمثل رواية فاجعة ألفها شاعر كبير والطبيعة التي ألفت هذه الرواية قد خصت كل بطل من أبطالها بأمر من الأمور، وأوعزت إليه في إنفاذ هذا الأمر فإذا شاءت أن تكون متسولاً أو أميراً أو أعرج فمثل التسول والامارة والعرج أحسن تمثيل.

لاشك في أن القبح قبيح وليس بجميل ولكن إذا كان كل شيء جميلاً في هذا العالم فلا يكون لجماله معنى، فمن المناسب أن يكون الشر موجوداً.

ويقول «فيكتور هوغو»:

الحياة إنما هي رواية يختلط فيها الجيد والرديء، والقبيح والحسن، والعالي والسافل وهذه سُنَّةٌ لا يضعف سلطانها إلا إذا اضمحل العالم.

«فمن الخطأ، على ما قال هوغو، لا بل من الجناية أن يخطر ببال الأديب أنه يحق له أن يكون بمعزل عن مصالح قومه، ورغائبهم، وأن يعدل بقريحته عن التأثير في أهل عصره وأبناء زمانه، وأن يتفرد بحياته فلا يكون له عمل في البنيان الاجتماعي، فمن الذي يخلص النية في هذه الأعمال الجليلة غير الشاعر، أي صوت يعلو في العواصف غير صوته، أم أي وتر يستطيع أن يخفف من شدة العواصف غير وتر قيثارته، فمن الذي يقتحم الفوضى فيذهب بمقابحها، ويهجم على الاستبداد فيدرج بمكارهه، وقديماً كان الشاعر صاحب الأمر النافذ في الجمع بين الشعوب والملوك، وحديثاً له الأمر في التفريق بينهم».

هذا ما قاله فيكتور هوغو فأنت ترى أن الطبيعة قد ألقت إلى الأديب مقاليدها وانتدبته ليقوم مقامها في تفريج الغم وكشف البلاء ونشر الفضائل وطي الرذائل فالشاعر عماد قومه، يدفع عنهم الملمات ويكشف عنهم المعضلات.

* * *

هذا هو هوميروس شاعر اليونان! ألف الإليازة (L, Iliade) شعر الوطنية وملأ شعره بحكمة بالغة وهي أن الشعب إذا افترقت كلمته نزلت به النوازل فأتت عليه.

وهذا الكامل شيشرون! فإن خطبه السياسية تدل على مقدار اهتمامه بمصالح وطنه.

وهذا مونتسكيو وفولتر وروسو وأشباههم! أثاروا الأفكار واستفزوا العزائم حتى قلبوا وجه العالم بصوب عقولهم وفيض قرائحهم.

فالشاعر مهذب الأخلاق، مصلح الطبايع، وناشر الفضيلة وطاوي الرذيلة، ولكن الشاعر الذي يكون شعره مثل مضغ الماء ليس له طعم ولا معنى فلا يكون له ذكر في الأيام.

**جريدة المقتبس ١١ تموز ١٩٢٧**



oberkandl.com

# في المجمع العلمي

قدم دمشق الشام العلامة استاش دي لوري وهو من الرجال الذين أحاط علمهم بشؤون الشرق وأوضاعه في القديم والحديث، وتعمقوا في تاريخ العرب، واطلعوا على ما خلده جماهير العرب في دنياهم من محاسن الآثار، وقد أوفدته الحكومة الفرنسية إلى هذه الديار للتنقيب عن الآثار في بقاع الشام، فهو مستشار في جملة المستشارين سمعت منه أن حكومته تعمل الروية في شراء دار آل العظم الكبيرة لتجعلها مدرسة لآثار الشرق وصناعاته، وقد أوعز إلى طائفة من العمال بالبحث عن آثار قديمة في الباب الشرقي، وسيحفر الأرض في جوار المسجد الأموي للفحص عن قصر معاوية، وقد كتب عنه الأستاذ عيسى اسكندر معلوف مقالة في جريدة (ألف باء) فلا حاجة إلى الافاضة بوصفه.

* * *

زار مسيو استاش دي لوري المجمع العلمي يوم الاثنين الماضي وكان معه عبد القادر بك العظم وكيل مدير المعارف العام والغرض الذي يرمي إليه في مزاره إنما هو الاستعراف إلى رجال المجمع ومفاوضتهم في أمور من أمور المتحف والمجلة والآثار وأشباه ذلك:

**بناء المجمع:**

دخل الزائر المجمع العلمي فلما وصل إلى ساحته أخذ يسرح الطرف في جدرانه، ويتأمل طرزها فاستبان له في مبدأ الأمر أن الجدران متباينة

الهيئة لا تَناسُبَ في بنائها، فبين يرى الإنسان جداراً طرازه من القرن الخامس للهجرة إذ يقع بصره على جدار هيئته من القرن العاشر فهو كان يود لو بنيت حيطان المجمع على صورة متشاكلة لا تنافر بينها، وقد وجد على أبواب المتحف خشباً منصوبة على صراط مستقيم طرزها من البناء السويسري فقال: لا حاجة إلى هذه الخشب وأشار على رجال المجمع برفعها حتى يستتم تناسق الجدران.

**المتحف:**

ولما فرغ من النظر بالجدران، وابداء رأيه في بنائها صعد في الدرج حتى بلغ مجتمع القوم، فجلس وجلس إليه عبد القادر بك العظم ورجال المجمع وفي جملتهم فارس بك الخوري ولما استقر المكان بهم طفق مسيو استاش دي لوري ينطق بلغته الفرنسية وفارس بك يترجم بالعربية فقال في جملة ما قال:

«ينبغي أن يكون للمتحف سجل عام يكتب فيه ما يحتويه المتحف من الآثار ومن أجل ذلك ينتخب دفتر متين تسنده خشبتان قويتان له ورق طيب يبقى على الأيام تقيد فيه مفردات التحف على سبيل التفصيل والترتيب، وتذكر فيه صفات الآثار وتاريخها وحجمها وصورتها، ويبين كيف جلبت هذه الأثار وكيف شريت وكيف أهديت إلى المتحف ثم تعلق على كل تحفة وريقة تبين فيها صفة هذه التحفة، ويذكر بخط مذهب اسم الذي أهداها ويحفظ هذا الدفتر في صندوق من حديد حتى لا تعبث به الأيدي.

ثم أشار على رجال المجمع بتنسيق المتحف فقد وجد في بعض الخزائن تحفاً لها قيمة عظيمة، وإلى جنبها تحف زائفة لا صحة لها فقال بإخراجها من الخزائن، وأضاف إلى ذلك ما يلي:

«قد يكون في خزائن المتحف آثار لم تعرف كل المعرفة، ولا وصفت كل الوصف فمن الضروري تصويرها وإرسال صورها إلى المستشرقين والمستعربين من علماء الغرب فربما كان بينهم من له دراية بهذه الآثار فيصفها ويبعث وصفها إلى متحف دمشق فتذكر صفاتها على ورقة تعلق عليها فتصير آثار المتحف واضحة كل الوضوح».

وقد وعد رجال المجمع أنه سيعيّن أياماً لتنسيق المتحف.

ولما فرغ من مقاله هذا شكر له رجال المجمع تنبيههم على هذه الأمور وقال له الأستاذ المغربي:

«أن رجال المجمع أحسوا بالأمور التي تزيد في رونق المتحف فانتخبوا من أجل ذلك مدير المتحف وأرسلوه إلى باريس ليتعلم فيها ما يجب معرفته في تنسيق المتاحف».

**مجلة المجمع:**

مضى قول موسيو استاش دي لوري في بناء المجمع وفي المتحف ثم ذكر دمشق الشام فقال:

«لدمشق الشام صيت قد ذهب في آفاق الأرض فهي مدينة مشهورة ولها تاريخ عظيم، والمستشرقون يرغبون في الاطلاع على أحوالها في كل حين فيجدر برجال المجمع أن يمهدوا لدمشق الشام المقام الأرفع، ومن موجب الأسف أن كثيراً من آثارها قد ضاع لتعاقب الدول والفاتحين عليها، فكلما دخلتها دولة طوت محاسن ما خلفته غيرها، وعلى هذا السبيل لم تستطع دمشق الشام من الاحتفاظ برسومها وآثارها على تراخي الأحقاب، وأما مصر فإن المقادير قد ظاهرتها على حفظ ما أبقاه ملوكها من الآثار فهي بمنزلة متحف طبيعي يلم الشتات بتحفه».

وقد رغب موسيو استاش دي لوري إلى رجال المجمع أن يعتنوا بآثار بلادهم وأن يضافروه على استنباط هذه الآثار من مدافنها، وأشار عليهم بعد هذا كله بتكبير مجلتهم حتى يكون لها شأن أعظم وذكر لهم أنه كتب إلى جماعة من أصحابه المستشرقين أن يبعثوا له بمقالات لمجلة المجمع، وأخذ لهذه الامور وأشباهها اهتمامها ثم اقترح أن يكون في منتهى المجلة مقالٍ أو مقالات باللغة الغربية حتى يزداد المستعربون من علماء الغرب انبساطاً إليها، وأضاف إلى مقترحه أن ينتخب مخطوطاً من المخطوطات المشهورة كابن عساكر وغيره مما تشتمل عليه المكتبة الظاهرية في دمشق أو أمثالها من درو الكتب الخاصة وأن يطبع في كل جزء من أجزاء المجلة شيء من هذا المخطوط فإذا تكامل المخطوط طبع على حدة وكتب عليه:

«هذا من أعمال المجمع العلمي في دمشق، وعلى هذه الهيئة يكون للمجلة طرز خاص في العالم».

**المدرسة:**

ثم جرى لموسيو استاش دي لوري كلام في المدرسة التي تفكر الحكومة الفرنسية في انشائها في دمشق فقال:

«تعنى هذه المدرسة بالآثار والصناعات الشرقية التي أوشك كثير منها أن يذهب بذهاب أهله، ويدخل المدرسة تلاميذ من الشام والعراق وفارس وفلسطين ومصر والجزائر ومراكش وأمثالها من البلاد التي انتفع أهلها في قديم الدهر بصناعات العرب، بصناعات رجالها فإن فارس من الأقطار التي أخذ عنها العرب كثيراً من الصناعات في القرون الخوالي».

هذا موجز ما تفاوض فيه موسيو استاش دي لوري ورجال المجمع ثم استأذنهم في الانصراف فمضى لطيته.

**جريدة المقتبس ١٨ /١١ /١٩٢١**

# بلاغة العواطف

سمع أبو فراس وهو في سجنه بقسطنطينية حمامة تنوح بقربه على شجرة فقال:

أقول وقد ناحت بقربي حمامة
أيا جارتا لو تشعرين بحالي
معاذ الهوى ما ذقت طارقة النوى
ولا خطرت منك الهمومُ ببالِ
أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا
تعالي أقاسمك الهموم تعالي
تعالي تري روحاً لدي ضعيفةً
تردد في جسم يعذب بالِ
أتحملُ محزون الفؤاد قوادم
على غُصنٍ نائي المسافة عالِ
أيضحك مأسور وتبكي طليقةٌ
ويسكت محزونٌ ويندبُ سالِ
لقد كنت ألوى منك بالدمعِ مقلة
ولكن دمعي في الحوادث غالِ

يقول أبو منصور الثعالبي: الروميات من غرر أبي فراس، لقد صدق أبو منصور في قوله، فإن شعراً يصدر في الأسر والمرض وفرط الحنين إلى الأهل والاخوان والوطن والتبرم بالحال والمكان، عن صدر حرج، وقلب شجي، لجدير بأن يكون من غرر الشعر.

أي عين لا تدمع إذا نظرت إلى روح أبي فراس تتردد في جسم معذب بال، لئن حبس أبو فراس دمعه في الحوادث فإن قلبه كان يبكي، ولا مندوحة لنا عن مشاركته في البكاء، فمن كان محزون الفؤاد، فلابد أن يُدخِل الحزن على قلبك، إذا كان لك قلب، يقول فيكتور هوغو:

«إذا أردت أن تستبكي فابك، فمن قنع بشيء استطاع أن يقنع غيره، فمن العواطف والأهواء ما يجمع رداء البلاغة من حاشيتيه، لغة العواطف أبلغ اللغات، فهي لغة صادقة أمينة، تصدر عن القلوب فتنفذ في القلوب قيل لديمستين: ما البلاغة، فقال: العمل ثم العمل، ثم العمل، فإذا شئت أن تؤثر فليكن في قلبك شيء من الأثر فليس مع الجمود حركة، فإذا كان دمعك جامداً فلا تستطيعُ أن تذرف دموع غيرك.

لذة الأفكار في تصويرها للناس، فأي خير يرجى من تصوير الأفكار إذا كان صاحبها قد حُرم قوة الاقناع.

سل خطيب الرومان عن أجمل أيامه، أجمل أيامه اليوم الذي لما منعه فيه نواب الشعب عن الكلام قال:

«أيها الرومان! أقسم أني أنقذت الجمهورية».

فنهض الشعب وقال:

نُقسم أنه صدق، في قوله:

فما يقال في البلاغة يقال في الفنون بمجامعها، فالفنون كلها إنما هي لغة واحدة ولكن هذه اللغة تحكى على أوجه شتى، فما الأفكار إلا انفعالات، وما الفنون إلا أساليب شتى للافصاح عن الأفكار.

أحب روسو أن يضع لتلميذه أصولاً يبني عليها في التربية فأراد أن يثقفه حتى لا يكون فيه عيب، ولكنه أمات فيه كل فضائله، فلم يدرك روسو أنه بإعطائه تلميذه كل ما ينقصه حرمه كل ما يملكه، مثل التلميذ الذي ينشأ بعيداً عن الفرح والضحك كمثل الرجل القوي الذي ينشأ بعيداً عن المعارك.

من أحب أن يكون جباراً لزمه أن يقتل الأفاعي من المهد.

يريد روسو أن يريح تلميذه من نزاع الأهواء ولكن الأهواء هي الحياة نفسها، وكيف يحيا من هو بعيد عن الحياة!

ما الوجود! إن هو إلا الشعور على ماقال لوك، فالرجال الأعاظم هم الذين شعروا كثيراً، فمعظم الأدواح لا تنبت إلا في مهاب الزوابع، مدينة أثينا مدينة الضوضاء ولذلك ظهر فيها ألف رجل عظيم، ومدينة سبارطة مدينة النظام فلم يظهر فيها إلا رجل عظيم وهو ليكروغ.

يتبين مما تقدم أن أكثر الرجال الأعاظم ينبغون في ثورات الشعوب وأثناء هياجها.

هذا هوميروس [1] نشأ في عصور بطولة اليونان.

وهذا فيرجيل [2] ظهر في أيام المؤامرات وهذا دانتي ولا ريوست ولوتاس![3] نبغوا في عصور التجدد في إيطاليا.

---

[1] هوميروس: شاعر اليونان.

[2] فيرجيل: شاعر الأتان.

[3] من شعراء أيطاليا.

وهذا كورني وراسين![٤] برزا في أيام المقلاع.

وإذا نظرنا في أحوال هؤلاء الرجال الأعاظم وجدنا أنهم قضوا حياتهم في بؤس واضطراب.

هذا كاموان[٥] ألف ديوانه وهو يشق البحار.

وهذا درسيا[٦] كتب أشعاره على جلود الحيوانات في غابات المكسيك.

يعيش هؤلاء النوابغ مضربين في عيشتهم، هائجين في أفكارهم، لا تسليهم آلام الجسم عن آلام الروح، ويأكلهم إفراطهم في الحس كما تأكل النار الحطب.

فما أسعد الذين لايموتون قبل أوقات الموت ولا تهلكهم عبقريتهم كما هلكت باسكال[٧]، أو يذهب بهم الهمُّ كما ذهب بمولير وراسين أو يستولي عليهم عذاب مخيلتهم كما استولى على «لوتاس» البائس!.

وجملة المقال: أن الأهوال الكبيرة هي التي تخلق الرجال، فالكلام الذي يصدر عن أمثال هؤلاء الرجال في أيام شدتهم وبلائهم يترك بليغ الأثر في القلوب.

لولا عذاب الأسر لما كانت روميات أبي فراس من غرر الشعر.

---

[٤] شاعران كبيران من شعراء فرنسا في القرن السابع عشر والمقلاع اسم أطلق على الفتنة التي نشأت لما كان لويس الرابع عشر طفلاً.

[٥] شاعر برتغالي.

[٦] شاعر من شعراء اسبانيا.

[٧] كاتب فرنسي.

ولولا ما شجر بين بكر وتغلب لما طفحت معلقتا الحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم على الخاطر.

وقصيدتهما على ما قال معاوية من مفاخر العرب.

قال الأسمعي لإعرابي: مابال المراثي أشرف أشعاركم، فقال: «لأنا نقولها وقلوبنا محترقة».

فالشعر الذي يقوله صاحبه وقلبه محترق لا بد أن يرق قسوة القلوب، ويذيب جمود الدموع، فأبلغ الشعر ما أفصح عن خوالج النفس، وأعرب عن لواعج القلب وإذا أحببت أن تعرف لطائف منه فاقرأ المهلهل وهو يطلب بثأر أخيه، وامرأ القيس وهو يطلب بثأر أبيه وانظر في بكاء ابن نويرة على أخيه مالك وليلى بنت طريف على أخيها الوليد، والشريف على المناذرة في خرائب الحيرة، وأبي عبادة على الأكاسرة في خرائب المدائن، والرضي على بني هاشم، والعبلي على بني أمية، وابن زيدون على ولادة، والبحتري على المتوكل.

ثم انظر في جنون المجنون بليلاه، وجميل بثينته، وإلى أشباه هذه الطبقات، فالكلام الذي لا يمليه القلب، لا ينتظم القلب، والشاعر إذا تغزل ولم يعشق، ورثى ولم يثكل، وبكى ولم ينكب، ووصف ولم ير، ولا شاهد، ووعظ ولم يخلص، ذهب شعره جفاء من غير أن يمكث في الأرض.

**جريدة المقتبس ١٩٢٧/٧/١١**